أسئلة النهضة في فكر البشير الإبراهيمي

Renaissance Questions in Baḉhid El Ibrahimi Thought

أ.د/ علي خذري

جامعة باتنة (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2020/02/18 **تاريخ القبول:** 2020/03/11

ملخص:

محمد البشير الإبراهيمي واحد من أصحاب المشاريع الفكرية المعاصرة، قدّم للفكر الإنساني عددا من الدراسات والمشاريع، منها ما تضمنته "عيون البصائر" التي تعدّ من الأعمال الفكرية الخالدة، والتي أثار فيها أسئلة نهضوية، تراثية، أخلاقية، لغوية، وطنية استحق بها شهرة واسعة وصيتا عربيا وعالميا.

الكلمات المفتاحية: الفكر، النهضة، الحرية، الوطن.

Abstract:

Al-Bashir Al-Ibrahimi is one of the owners of contemporary intellectual projects. He presented to the humanity numerous studies of thought, including ‘‘Ouyoune Albassayer’’ that is considered immortal intellectual works in which he raised questions of renaissance, heritage, moral, linguistic, and national, to which he deserved wide fame and an Arab and international reputation.

keywords: Thought, renaissance, freedom, nation.

مقدمة:

إنّ النهضة الفكرية التي عرفها التاريخ العربي الإسلامي، لم تخطط لها الحكومات والأنظمة، بل كانت في الغالب من عمل نخبة تحمل هم الحاضر والمستقبل من أجل تغييره نخبة تستقطب النشاط الفكري في بلادها بما تقيّمه من حوار بين أفرادها، وما تشيعه في الوسط الثقافي العام المحيط بها من روح علمية وإصلاحية وروئ فلسفية مستقبلية.

ومحمد البشير واحد من أصحاب المشاريع الفكرية الإصلاحية قدم للنهضة الجزائرية المعاصرة رؤية فعالة استحق بها شهرته ومكانته الرفيعة في المجتمع الجزائري وفي العالم العربي.

وعلى ضوء هذا التقييم لهذا العلم أردنا أن يكون واحدا من الأعلام الذين نعالج مشاريعهم الفكرية.

وفي شرح الرجل لمراميه ومقاصده من هذه النهضة يقول محددا إطار مشروعه الفكري في إحدى مقالاته: "أردت في حياتي أن اجتهد ولا أقلّد، ولو كان اجتهادي غير مصيب"[1].

من هنا انطلق يفكر في الإصلاح، ورسم سبيله، فقد تقلب في أطوار كثيرة، استجمع فيها ما مكنه من تحصيل تكوين متين أخذ فيه بناصية العلوم العقلية، فقد اشتغل بالمنطقيات، وباللغويات وحصل أسسها وضبط نظرياتها، إلى جانب تكوينه الأصيل في مضمار العلوم الشرعية خصوصا علوم أصول الفقه، وهذا ما جعله مفكرا أصيلا.

فقد كان الرجل يحمل في بنيته وتكوينه صراعا مريرا مع الاستعمار، وسعى بكل قواه إلى تجاوز النكسات التي أصابت الكيان الجزائري، وحاول أن يجيب عن الأسئلة القلقة التي يطرحها الواقع الجزائري، تلك الأسئلة العالقة التي استهلكها المفكرون السابقون عليه دون أن يخرجوا منها بما ينعتق به هذا الفكر من حالة اجترار فكر السلف دون وعيه وعيا عقليا يمكنه من الانطلاق في فلسفة جديدة للانتماء إلى الإنسانية المعاصرة، أو اقتفاء أثر الحداثة الغربية فيشارك في إنجازاتها الحضارية.

1- سؤال التراث:

لعل سؤال الفكر الذي يلح في مشروع الإبراهيمي يقترن بالعودة إلى: **التراث الإسلامي**، باعتباره وعاء محملا بروابط تصلنا بكينونتنا وتحمل إمكانات خصبة يمكننا أن نستمد منها فكر أسباب النهوض يقول: "في هذا الوطن الجزائري شعب عربي مسلم ذو ميراث روحاني عريق، وهو الإسلام وآدابه وأخلاقه، وذو ميراث مادي شاده أسلافه لحفظ ذلك التراث"(2).

فحديث الإبراهيمي عن التراث حديث عن أحد المقومات الأساسية للشعب الجزائري فهو بمثابة العمود الفقري الضامن بقيام الذات الجزائرية واستمراراها، ولا أدل على ذلك من تلك المشاريع الفكرية العديدة التي ربطت نهضة ومستقبل الأمة العربية الإسلامية "بإعادة قراءة التراث وفقا لثنائية التراث والحداثة على غرار أعمال محمد أركون، الجابري، نصر حامد أبو زيد، وقبلهم طه حسين، محمد عبده، بن باديس وغيرهم من المفكرين الإصلاحيين"(3).

وإذا كان التراث هو ما تركه السلف للخلف، بمعنى مجمل العناصر الثقافية التي تنتقل من جيل إلى آخر، فإن أركون يذهب "إلى أن تاريخ البشرية يشبه تاريخ الكرة الأرضية الذي ينتج طبقات جيولوجية متراصة فوق بعضها البعض، ومن ثمة فما نطلق عليه مصطلح التراث ليس كتلة واحدة، بل هناك ثلاث طبقات من التراث وهي في حالة تفاعل متبادل داخل ما يدعى بشكل عام التراث الإسلامي"(4).

هذه الطبقات التراثية توجد في تداخل وتفاعل وتبادل للأدوار، وتتنافس فيما بينها منذ العصر التأسيسي للإسلام إلى يومنا هذا، وهذا التنافس كثيرا ما كان يخضع لعوامل القوة والسلطة دون المعرفة الحقيقية له، لذلك فإن الكشف عن حقيقة التراث تقتضي دراسة هذا التراث بوعي عقلي وبآليات منهجية حديثة تمكن الدارس من الوقوف على النظام المعرفي الذي يؤسس العلوم والفلسفة الإسلامية، كما صاغ قضاياها الفلاسفة المسلمون الأوائل الذين بنوا رؤياهم للعالم على الترابط السببي وكرسوا منهاجهم في إنتاج المعرفة على الانتقال من مقدمات يضعها العقل إلى نتائج يلزم عنها منطقيا.

وعملية التفكير هذه لا تتم إلا داخل ثقافة معينة وبواسطتها، والتفكير بثقافة ما معناه التفكير من خلال منظومة مرجعية تتشكل إحداثيتها الأساسية من محددات هذه الثقافة ومكوناتها، وفي مقوماتها الموروث الثقافي والمحيط الاجتماعي والنظر إلى المستقبل، بل النظرة إلى العالم، إلى الكون والإنسان، كما تحددها مكونات تلك الثقافة هي الثقافة العربية على وجه التحديد، الثقافة التي تحمل معها تاريخ العرب الحضاري العام، وتعكس واقعهم وتعبر عن طموحاتهم ومستقبلهم "فالسبيل القويم الذي يؤدي إلى حفظ الجيل الجديد من هذه الشرور المتوارية، هو المدرسة العربية التي تصقل الفكر والعقل واللسان وتسيطر عليها، وتوجيه الجيل الناشئ إلى الإسلام والعرب، إلى الشرق والروحانية فعلى هذه المدرسة يتوقف حظ كبير مما نرجوه لهذا الجيل"[(5)].

فربط النهضة في فكر البشير الإبراهيمي بالثقافة التي ينتمي إليها، الثقافة التي أنتجته والتي يعمل على إعادة إنتاجها، فهو جزائري عربي، قد تكون داخل الثقافة العربية، ولذلك ظل يسهم في نشرها وتعليمها للأجيال بوصفها ثقافة حضارية في الماضي وقابلة لأن تكون ثقافة عالمية في المستقبل إن نهض بها أبناؤها بالبحث العلمي والتطور التكنولوجي.

"اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة، بل هي في دارها، وبين حماتها وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدة الأواصر مع الحاضر"[(6)]. ولذلك يسعى الإبراهيمي إلى دعوة الأجيال للنظر إلى ثقافتنا وحضارتنا في ضوء معطيات عصرنا، وأن ذلك لا يمكن تحقيقه إلا بتعميم المعرفة الكافية والضرورية باللغات الأجنبية الحية المعاصرة بين المثقفين في المدارس والجامعات.

وبالعمل على إعادة قراءة تراثنا قراءة نقدية معاصرة تستوحي المفاهيم والمناهج الجديدة وتوظيفها في خدمة الموضوع لا أن يكون الموضوع في خدمتها، بالإضافة إلى الانكباب المتواصل على تحليل واقعنا والإنصات إلى ترجيعاته.

وفي رأينا أنّ إعادة بناء الحاضر، يجب أن يتم في آن واحد مع عملية إعادة بناء الماضي، وذلك بتفكيك عناصره، وإعادة ترتيب العلاقة بين أجزائه بصورة تجعله كلا جديدا قادرا على أن يؤسس نهضة، لابد أن تنطلق من تراث تعيد بناءه مستهدفة تجاوزه، ومن

الخطأ الجسيم الاعتقاد بأنّ الذات العربية يمكن أن تنهض بالرجوع إلى الماضي، واختيار ما يصلح منه، كما أنه من الخطأ الجسيم كذلك الاعتقاد بأنّ هذه الذات يمكن أن تنهض بالإعراض الكلي عن ماضيها والانتظام في تراث غير تراثها،كما أن الإنسان لا يمكن أن يبدع إلا داخل ثقافته وانطلاقا من تراثه.

إنّ الإبداع بمعنى التجديد الأصيل لا يتمّ إلا على إنقاذ قديم وقع احتواؤه وتمثله وتجاوزه بأدوات فكرية معاصرة تتجدّد بتجدّد العلم وتتقدّم بتقدّمه.

إنّ الحاجة تدعو إلى قيام نخبة عربية جديدة، أصيلة بانتظامها في التراث العربي لتجديده من الداخل، وجديدة بانتظامها في الفكر العالمي المعاصر، ومواكبة له لقصد توظيف أدواته المنهجية ورؤاه العلمية في إعادة بناء الماضي وتغيير الحاضر وتشييد المستقبل.

2- سؤال الأخلاق:

وتتأسس النهضة في مشروع الإبراهيمي على الهمم الأخلاقية العالية التي تصنع المستقبل بكونها تؤمن بما في يد الإنسان من إمكان لاجتراح سبل قويمة للحضور المستخلف في الكون بما يحفظ إنسانية الإنسان ويضمن اكتمالاته المتعددة والمحددة، فهو يعتبر الأخلاق عمدة في أي مشروع نهضوي؟، فيقول لتلاميذه: "إنكم لن تستطيعوا أن تنفعوا وطنكم وأمتكم إلا اذا ملكتم سلاحين هامين بدونهما لن تفلحوا في الحياة، ولن يستفيد منكم وطنكم شيئا هاما، إلا بالأخلاق القويمة المبنية والعلم القوي النافع"[7].

ويعتبر مظهر الأخلاقية من المظاهر القوية في مشروع الإبراهيمي، فهو يوصي المعلمين بضرورة الإتصاف بالأخلاق العالية، وأن يحرصوا على "أن يكون ما يلقونه في تلاميذهم في الأقوال منطبقا على ما يرونه ويشهدونه منكم من الأعمال، فإن الناشئ الصغير مرهف الحس، له طلعة إلى مثل هذه الدقائق التي تغفلون عنها، ولا ينالها اهتمامكم، وإنه قوي الإدراك للمعايب والكمالات، فإذا زينتم له الصدق فكونوا صادقين، وإذا حسنتم له الصبر، فكونوا صابرين ألا إنّ رأس مال التلميذ هو ما يأخذه عنكم من الأخلاق الصالحة بالقدوة، وأما ما يأخذه عنكم بالتلقين من العلم والمعرفة فهو رِبْحٌ وفائدة"[8].

فالإبراهيمي يركز على الجانب الأخلاقي في مشروعه، فهو يؤمن بأنّ "الهمة الأخلاقية للإنسان أقوى من الأمر الواقع، وأصلب من حتمية الحدث، لأن الواقع القائم لا يستنفذ الإمكان الذي في يد الإنسان ولا الحتمية المستوية إلى التاريخ تستنفذ طاقته"[9].

فهو يؤمن بقدرة الإنسان على صنع تاريخه وتحويل مصيره، وكل ذلك معقود على الهمة الأخلاقية، فهي التي تصنع القيم بوصف القيم جسرا بين عالم الواقع والفعل الإنساني، الذي يؤثر في هذا الواقع، ولذلك يوصي المربين بأن يربوا التلاميذ على "الفضيلة الإسلامية التي هي مناط الشرف والكرامة والكمال، وأن تأخذوهم بممارسة الشعائر الدينية صغارا، حتى لا نضيعهم كبارا، وأن تزرعوا في نفوسهم حب العلم والمعلم، وحب الأب والأم، وحب بعضهم بعضا، وحب الله ورسوله والإسلام قبل ذلك ومعه وبعده"[10].

فمشروعه النهضوي يؤسس لحوارية أخلاقية، تعتمد عقلانية مفتوحة على إمكانات التوسع، ويستمد في ذلك طرائق المنطق ومناهج التدليل الأخلاقي في التذكير بالواجب فيقول: "هناك حدود مشتركة بين الضار والنافع من أعمالكم، فتبينوها ثم اعملوا على قدرها، ولا تجاوزوا حدا إلى حد، فتضروا من حيث قصدتم إلى النفع، واحذروا الزلة في هذا المزلق، واحذروا القسم منها بالقول والعمل"[11].

فهذا الخطاب يستجيب لمطلب النهضة، ويقدم أساليب للنهوض، ويخترق حجب الضلال بألوان من المناهضة الحية، لهذه الأفكار البالية التي تسيطر على عقول العامة وتنتشر في أوساط المجتمع الأمي الذي يتلقى هذه الأفكار في غير مصادرها النقية الصادقة ذات المرجعية البهية الصحيحة، ولهذا حق لفكره أن يرقى إلى درجة يحصل معها التواصل بالتعارف المتجسد في الأخلاقية، لأن التربية قبل التعليم، لأنها الأساس الذي يبنى عليه، ولا مستقبل لأمة تفصل بينهما أو تقدم العلم المجرد وتهتم بنشر المعارف الدقيقة وتهمل بالمقابل التوجه الخلقي وزرع القيم على أساس من مرجعية الأمة ودينها وثقافتها الأصيلة وقد أجاد حافظ إبراهيم في قوله:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا[12]

هكذا يربط الإبراهيمي حياة الأمة وتطورها بمكارم الأخلاق،لأن الأمم لا تبنى إلا على أساس من الهمة الأخلاقية العالية، ذلك أن العالم من حولنا، إنما يتطور بتأسيس نفسه على هذه الأسس العلمية والفكرية التي تضيء أفق الإنسان "ذلك أن الإنسان ليس كاملا بل هو سيرورة في الاكتمالات، وهذه الاكتمالات موقوفة على همته الأخلاقية"[13].

ويعتبر مظهر الأخلاقية من المظاهر القوية في المشروع الإبراهيمي، فهو ينطلق من تحديد مفهوم الإنسان بإخراجه من التحييد اليوناني الذي اختزل الإنسان في العاقلية: "الإنسان حيوان عاقل" إلى التحديد الإسلامي الذي اعتبر الإنسان كائنا أخلاقيا، وهو في هذا يلتقي فلاسفة غربيين أمثال "بول ريكور" وغيره، فما يطبع فكره هو التركيز على الجانب الأخلاقي، فبقول "الأمة التي لا تجعل الأخلاق ملاكها تتعجل هلاكها"[14].

3- سؤال التربية والتعليم

إنّ المهمة الأساسية المطروحة على الفكر الجزائري، هي تحقيق الاستقلال التاريخي للذات الجزائرية، وليس من سبيل إلى ذلك إلا بالتحرر من الجهل وآليات التفكير التي يكرسها عن طريق الخرافات وشيوع أفكار الطرقية في نفوس الجزائريين.

أدرك علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أن تغير الأوضاع والذهنيات لا يتحقق إلا إذا حدث التغيير في البنية الذاتية للمجتمع الجزائري، بأن يعمل كلّ فرد على تغيير ما بنفسه بالتخلص من مجموع القيم السياسية من تواكل واستسلام، وضعف الهمة، حينئذ يصبح مؤهلا للتخلص من الاستعمار ويحقق فاعليته في التاريخ، ولهذا اتخذت الجمعية الإصلاحية الآية: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ**﴾[15] شعارا لها، وتبنتها أساسا لكل تفكير حتى آمن بها الشعب، فأصبحت أحاديثه تتخذ منها شرعة ومنهاجا.

ولم يكن هذا المنهج في التغيير إلا نتاج تأمل عميق سواء في أصول البنية الثقافية والمعرفية للمجتمع الجزائري، أو لواقع الحال في تلك الظروف العصيبة في مراجعة الهوان التاريخي حتى نجد الإبراهيمي يؤكد لطلابه قائلا: "من أراد أن يخدم هذه الأمة فليقرأها كما

يقرأ الكتاب وليدرسها كما يدرس الحقائق العلمية، فإذا استقام له العمل وآمن الخطأ فيه وضمن النجاح والتمام له، فإن تصدى لأي عمل يمس الأمة من غير درس لاتجاهها ولا معرفة بدرجة استعدادها كان حظه الفشل"[16].

وهذا التغيير لا يتأتى إلا بوسيلة التربية والتعليم، التربية بمعنى التوجيه السلوكي الخلقي وهو ما يزرع القيم والعادات الإيجابية التي ترفع للحركة بالنهوض وإتقان العمل ومن ثم الجهاد ضد الاستعمار، وهو ما لا يتم إلا بإصلاح التعليم وفق منهج سديد للتوجيه والتثقف على أساس فكر حي صحيح يستمد من مرجعية الشعب الحضارية، وقد صدق الإبراهيمي في رؤيته وتفكيره، إذ أن أغلب ثوار الثورة التحريرية تخرجوا من مدارس جمعية العلماء الجزائريين وتلقوا تعليمهم وتوجيهاتهم بها، وطبقوها في واقعهم فصنعوا لأنفسهم تاريخا مجيدا انتهى بالثورة على الاستعمار، فالإبراهيمي يؤمن بقدرة الإنسان على صنع تاريخه وتحويل مصيره وكل ذلك معقود على همة الإنسان، فهي التي تضع القيم بوصف القيم جسرا بين عالم الواقع والفعل الإنساني الذي يؤثر في هذا الواقع، لذلك فالواقع يوقعه الإنسان بفعله ويرفعه بإرادته التي تظل دائما عبارة عن إمكان في يده، كما أن حتمية الاستعمار مهما جثم على العقول والوطن لابد أن يرحل ويزول، فلا يثبت الإنسان الجزائري في وطنه الذي لا يقبل بالأمر الواقع، ولا تفرض عليه ثقافة الاستعمار التي تسيطر على العقول فتجعله يدور في فلكها، ولا يلتفت إلى ما حوله: "لأن العالم من حولنا إنما يتغير كلما غيرنا وحددنا منظورنا"[17]، ذلك هو شأن فكر الإبراهيمي بوصفه فكرا نهضويا متحديا يطبع كل نتاجه الفكري والتربوي.

لقد قامت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بتربية الشباب الجزائري وأعدته للثورة التحريرية ليناهض الاستعمار ويثور في وجهه، فقد كان العلماء المحرك الإساسي للحياة الثقافية والوطنية في التاريخ الجزائري الحديث، فكل من له إلمام بتاريخ الجزائر يعرف أن الثورة التحريرية قامت على أكتاف هذا الجيل الذي تربى في أحضان الجمعية، وأن أغلب ضباط هذه الثورة كانوا من إنتاجها، وأن تأثيرها الحاسم على مستوى تغيير المفاهيم، وتحديد الرؤى، ومن ثم في إعادة بنية العقل الجزائري، وتنشيط فعاليته بصورة مستمرة حتى تحرير

البلاد من الاستعمار وهو ما كان الإبراهيمي ينافح جاهدا –واصلا الليل بالنهار– لمحاربته حتى يتحقق أمله المعقود في نواصي الشباب الذين هم عماد الأمة، ممن تخيلهم في مقالاته المشهورة التي يخاطب فيها الشباب الجزائري "يا شباب الجزائر هكذا كونوا أو لا تكونوا"[18].

هكذا ظل الإبراهيمي يستحث الشباب الجزائري ويستنهضه حتى يكون قادرا على مجابهة تحديات الواقع والاستجابة لنداء الواجب بإذكاء الشعور الوطني في نفس الفرد بدفعه للثورة والتغيير، الثورة أولا على قابليته للعبودية بتخلصه من أفكار السلبية والتواكل والقدرية العمياء التي تدفعه للاستسلام. ثم الثورة ضدّ بؤر الظلام الطرقية ربيبة الاستعمار، ثم الثورة ضدّ الاستعمار بجميع أشكاله ومختلف ألوانه [19].

لقد ربط الإبراهيمي النهضة بالشباب الجزائري المشبع بالتربية الإسلامية، والمتلقي بعدها تربية حديثة، تتفاعل فيما بينها في مخاض سيفرز شبابا رائدا في المواءمة بين الحداثة والأصالة، بناء على استلهام خطاب الأسلاف واستمداد مصادر القوة المنهجية في الفكر المعاصر، وذلك كله تأسيسا على الفعل التربوي والعملية التعليمية المتاحة والمساعدة على التكوين. ولا يكون هناك تعليم مؤسس، ما لم تكن هناك مدرسة، لأنها أكبر دعامة تقوم عليها النهضة الجزائرية[20].

ولما كان المجتمع وقت الاستعمار يعجز حتى عن التعبير عما يريده من تعليم، كان من البديهي أن يكون هناك تعليم حر في البلاد، وقد عمل الإبراهيمي على توسيع حدود التعليم في الجزائر ونادى بفتح أكبر عدد من المدارس الحرة، كما ركز على وجوب انتقاء المداخلات التعليمية بغية إعداد جيل يستطيع مجابهة الاستعمار، ويحافظ على أصالته ومعالم هويته وتكون له القدرة على مقارعة الظلم ومجابهته، ومحاربة الجهل وردعه بالحجة البينة والدليل القاطع، وقد رأى الإبراهيمي أن تدارك ذلك لا يحصل فعلا ما لم يكن التعليم مؤسسا على أمرين أساسيين، لا ينبغي على أحد بأي حال من الأحوال أن يغفلهما أو يتساهل فيهما هما: الإسلام واللغة.

4- سؤال الإسلام:

لقد شكّل الإسلام مشروعا حضاريا في فكر البشير الإبراهيمي كما تبدّى ذلك في أعماله التي تجمع تحت عيون البصائر، فهو مفكر إسلامي يسعى إلى إيجاد الجواب الإسلامي، وتأسيس حداثة إسلامية، وذلك بناء على مواجهة الحداثة الغربية بالنقد الأخلاقي، ونجد ذلك واضحا في نقده سياسة الاستعمار اتجاه التعليم في الجزائر، وتهميش اللغة العربية ووصفها بالعجز عن التقدم الحضاري، ومن ثم صرف الناس عنها إلى غيرها من اللغات الحية بقصد النيل من الهوية الجزائرية فيقول الإبراهيمي: "إن جمعيتكم هذه أسست لغايتين هما: إحياء مجد الدين الإسلامي، وإحياء مجد اللغة العربية؛ فأما إحياء مجد الدين الإسلامي، فإقامته كما أمر الله أن يقام بتصحيح أركانه الأربعة، العقيدة، والعبادة والمعاملة، والخلق"[21].

فالإبراهيمي يؤكد على الدين الإسلامي ودوره في تأسيس حداثة إسلامية لها مظاهرها الخلاقة وأثارها في الواقع، من خلال تطبيق مبادئه الصحيحة، من أجل تحقيق الحرية الفكرية للأمة الجزائرية بتحرير الإنسان قولا وعملا من التبعية الغربية، بحيث يقتدر المثقف الجزائري على إنشاء منظومته المعرفية وابتكار آلياته ومفاهيمه بنفسه، وإيجاد الجواب الجزائري المحض لمشاكله، بما يجعله حاضرا حضورا حضاريا، ويمارس اختلافه الفكري بما يغني الحضارة العربية والإنسانية ويسهم في كمالها بإضافة الروح الخاصة التي تميز الجواب العربي، والتي تؤمن للأمة الإسلامية حق الاختلاف في فكرها عن الأمم الأخرى ولو كانت أشد منها بأسا[22].

وقد ارتمى الإبراهيمي في الفكر الإسلامي وأبدى إعجابه بالمنهجية الأصولية الإسلامية، وأعرب عن ذلك بقوله: "إني أعد هذه المنهجية هي العطاء المنطقي الإسلامي البارز في عموم التراث العربي"[23].

لقد شكلت هذه العدة المنهجية الإسلامية منهجا، ترسمه الإبراهيمي في مواجهة نقد الفكر العربي، وأخذ في تطبيق ذلك في المدارس التعليمية انطلاقا من استئناف العطاء في مجالاته المنهجية وتحريره بالانفتاح على قضايا العصر. "ولا يتم هذا الوجه المثمر، إلا بتوحيد

منهاج التربية وبرامج التعليم، ولا يتم توحيد المنهاج إلا بتوحيد الأداة، ولا يتم توحيد الأداة إلا بتوحيد الإشراف العام"[24].

هذا ما جعل الإبراهيمي يسخر نفسه لتطوير التربية وإعداد جيل جديد يحمل فكرا خيرا في مجال الرؤية المستقبلية، ومن ثم ظل يحرص على الدعوة إلى الإسلام الصحيح وتطبيق تعاليمه وأركانه، وحفظ كتابه وتلاوته باستمرار من أجل تقويم الألسنة وجعلها تلهج باللغة السليمة يقول: "فحفظ القرآن ينمي ثروتكم الفكرية، ويغذي ملكتكم البيانية، والقرآن تعاهدوه بالحفظ وأحيوه بالتلاوة، وربوا ألسنتكم على الاستشهاد به في اللغة والقواعد"[25].

5- سؤال اللغة

تشكّل اللغة العربية لبنة قوية في مشروع الإبراهيمي، وظلت تواصل حضورها في الفكر الجزائري المعاصر، فهي التي تعكس فهم الأمة وتحدّد صلتها بالوجود، ذلك أن الفكر قد يجترح سبلا تبدع في اللغة، وتتعدّى بها زمن الماضي عندما تقترب بحاضرها لتحضر فيه واستشراف أفقها لتدل عليه، يقول: "اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة بل هي في دارها، وبين حماتها وأنصارها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي مشتدة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل، ممتدة مع الماضي لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام"[26].

هكذا يبين الإبراهيمي مكانة اللغة العربية في الجزائر، فدخولها إليه كان مع دخول الإسلام، ولذلك ستظل مقيمة في هذا البلد ما دام الإسلام مقيما بها، ثم بين مكانة اللغة في الفكر الجزائري والتأثير الذي تمارسه في استيعاب الوجود وقضايا الوطن، أي اعتبار اللغة "إن لم تكن مولدة للفكر الوجودي، فلا أقل أن تكون تعبيرا عن هذا الفكر"[27].

يقرّ الإبراهيمي أن للغة دخلا في توجيه الفكر وتصويب رؤيته للوجود، مؤكدا على حقيقة مفادها أن الفكر متى كان مقطوع الصلة بالبنية اللغوية فإنه سيظل عقيما وتابعا. لذلك دعا إلى فكر عربي مسلم تشترك اللغة العربية في بناء مضامينه، بالإضافة إلى المضامين الفكرية والعلمية العامة.

أخذ الإبراهيمي بالمنعطف اللغوي، وسعى إلى تحليل وظيفة اللغة الطبيعية التي تنفتح على الوجود بحيث رسم لها سبيلا إلى الفهم المجدد باستمداد رؤية العالم المطوية في تجاوز "الإبانة عن الدين إلى الإبانة عن الدنيا . فأصبحت لغة دين ودنيا معا"[28].

فخصوصية اللغة تكمن في كونها مؤسسة اجتماعية تشحن داخلها خزانا ثقافيا وقيميا يشكل مجالها التداولي الذي تتفاعل بواسطته مع العالم الخارجي حتى تحقق ذاتها ولفهم هذا العالم لابد من تشريحه وتحليله للظفر ببعض معانيه المنتشرة عبر اللجوء إلى فك رموزه (أي اللغة). "ولا ضير أنّ اللغة بشكل من الأشكال هي سر هذا الوجود، لأنها تدل وتقر على معان الأشياء تصبح رموزا وقد تصير علامات تتسلل إلى قلب الثقافات لإعادة مشاريعها الكبرى"[29].

ولا ينكر لبيب أنّ الخطاب الأدبي عند الإبراهيمي، كتابة مخصوصة تشتمل على آليات البيان والجمال، وتستوجب المناهج الحديثة للنظر في هذا الخطاب الأدبي والفكري للتنقيب عن الدلالة، وما يحمل من معنى في الذهن، لأن كثافة اللغة الإبراهيمية تنمحي انمحاء في فعل استحضار الفكر للدلالة الموجودة في النص وفعل إدراك المعنى.

خاتمة:

يشعر القارئ في مشروع الإبراهيمي أنه إزاء خطاب إصلاحي جديد، نابع من تجربة فكرية وروحية ذاتية، انتهى فيها الإبراهيمي إلى تقديم أسس فكرية موسعة استلهمها من رؤية دينية صريحة تجعل العقل في خدمة الدين، راهن فيها على الخروج عن التقليد، وطلب التجديد المفضي إلى الانتماء الواعي للحاضر، مع استشراف أفق المستقبل لهذا الفكر، دون الانقطاع عن الأصول أو الاجتثاث من الجذور.

فقد كان أول سؤال واجهه الإبراهيمي في تأسيسه لنهضته هو سؤال حقيقة التراث ومنهجه، ذلك أن سؤال التراث يطرح سؤال المجاوزة أو على أقل تقدير سؤال المستقبل.

لقد راهن بعض المفكرين المعاصرين على الارتماء في أحضان الحاضر والانخلاع من الماضي، وبالتالي رفضوا الانتماء إلى تراثهم، مقلدين ومتبنين لحظة الحداثة، التي لم يكن لهم

فيها أي حضور، فقد انصرف الفهم إلى اعتبار ما وصل إليه الغرب هو منتهى النهضة وأن أيّ مشروع يسعى إلى النهضة ينبغي أن يستعمل منجزاته، وتغافل عن كون النهضة مشروعا تاريخيا ينمو بشكل متكامل مع تاريخ الثقافة ووسائلها المادية ومنجزاتها الروحية في إطار زماني ومكاني، وفي سياقات حضارية معقدة بعضها واضح وبعضها الآخر خفي ويتراكم بالتدريج إلى أن يصل إلى حالة تسمى النهضة.

واعتبر الإبراهيمي أن تحديد المنهج في تقويم التراث سيعمل على تحديد صلتها بالتراث بما يقوم دليلا على إمكانية البناء بعد استئناف الإمكانات المطلوبة في تراثنا الفكري الذي يستحيل أن ننسلخ عنه.

وظلّ هذا المشروع يستمد قوته من منطلقات ومبادئ أخلاقية تقترن بالسياق الإسلامي الذي ينبعث من قناعة تفيد أن الأمة الإسلامية مطروح عليها أن تكون مسؤولة لشهوديتها، ومسؤولة لما أوكل إليها من تشريف بالخيرية وتكليف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي قيم سيتم عمل الإبراهيمي من خلالها على تقديم تصور للجماعة البشرية التي يريد أن ينشئها في الجزائر، جماعة واعية متعاونة تخدم الوطن.

إن فكر البشير الإبراهيمي نهضوي ينشد أصولا ثابتة تجعله فكرا مجتهدا يجيب عن أسئلة زمانه في نطاق مرجعيته الإسلامية.

والسؤال الأخير الذي يطرحه الإبراهيمي للخروج من هذا الواقع يقترن بالمنعطف اللغوي الذي اعتبر فيه أنّ اللغة ليست مجرد وسيلة للتواصل، بل هي وعاء محمل بروابط تصلنا بوجودنا وتحمل إمكانات خصبة يستمد منها فكرنا أسباب النهوض، وهو ما التفت إليه دارسوه ونقاده واعتبروه مصدر قوته وبيان قدرته على التأثير.

وفي الأخير نأمل أن نكون قد فتحنا أفقا لمجاوزة هذا الفكر العربي المسلم، وفتق إمكانات التفاعل المفضي إلى عتبات المجاوزة التي تكون في منتهى كل فكر لا يدعي التمامية والكمال.

الهوامش والإحالات

(1)– محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، جمع وتحقيق: أحمد طالب الإبراهيمي، ط1، بيروت دار الغرب الإسلامي. ص28.

(2)– فارح مسرحي، التراث والهوية، منشورات الوطن، الجزائر، 2017، ص 19.

(3)– محمد أركون، الفكر الإسلامي، نقد اجتهاد، ترجمة هاشم صالح، المؤسسة المعرفية للكتاب الجزائر، ط3، 1993، ص 104.

(4)– المرجع نفسه والصفحة.

(5)– محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 302.

(6)– المصدر نفسه، ص:221.

(7)– تركي رابح، البشير الإبراهيمي في المشرق العربي، مجلة الثقافة، الجزائر، ص 232 – 233.

(8)– محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 291.

(9)– طه عبد الرحمان، سؤال الأخلاق، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص: 60.

(10)– محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص: 296.

(11)– المصدر نفسه، ص96.

(12)– المصدر نفسه والصفحة.

(13)– إبراهيم مشروح، طه عبد الحمان – قراءة في مشروعه الفكري والحضاري، سلسة العالم الإسلامي، مركز الحضارة الإسلامية، ط1، بيروت، ص 117.

(14)– تركي رابح، البشير الإبراهيمي في المشرق العربي، مجلة الثقافة، م س، ص: 232، 233.

(15)– سورة الرعد: 11.

(16)– مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط1، دار الفكر، دمشق 1986، ص25.

(17)– إبراهيم مشروح، طه عبد الرحمان – قراءة في مشروعه الفكري، م س، ص 47.

(18)– تركي رابح، الإبراهيمي في المشرق العربي، م س، ص 932.

(19)– المرجع نفسه والصفحة.

(20)– محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتحقيق أحمد طالب الإبراهيمي ط1، بيروت 1997، دار الغرب الإسلامي، ج1، ص 132.

(21)– المصدر نفسه، ص 136، 137.

(22)– طه عبد الرحمان، الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، المركز الثقافي العربي، بيروت 2005، ص 17.

(23)– آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ص 136.

(24)– محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 304.

(25)– المصدر نفسه، ص 218.

(26)– المصدر نفسه، ص 221.

(27)– طه عبد الرحمان، حوارات من أجل المستقبل، دار الهادي، بيروت، 2003، ص87.

(28)– محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 221.

(29)– مخلوف سيد أحمد وآخرون، اللغة والمعنى مقاربات في اللغة، منشورات الاختلاف، الجزائر 2010، ص9.